

رواية نفسية فلسفية

الإنسان

وجدان الحامدي

الإنسان

وجدان الحامدي

المقدمة

لم يكن أحد يعلم متى بدأ الظلام، ولا إن كان الظلام قد جاء من الخارج أم أنه كان يسكن داخل الإنسان منذ البداية. كان العالم يمضي في صمته الطويل، يحمل فوق كتفيه أجيالاً ولدت، وأخرى ماتت وهي تبحث عن شيء لم تستطع تسميته. شيء يشبه الحقيقة، يشبه النجاة، يشبه المعنى الذي يختبئ خلف كل سؤال.

في مكان لا يعرفه أحد، تحت طبقات من الزمن والنسيان، ظهرت زهرة.

لم تأت من قصر، ولا من نسب عظيم، ولا من مكان يليق بمن سيغير طريقة نظر البشر إلى أنفسهم. خرجت من غبار الجهل، من بين بقايا الأفكار المهملة، وكأنها لم تولد من رحم الحياة، بل من سؤال قديم رفض أن يموت.

كانت غريبة في حضورها؛ لا لأنها كانت تملك أجوبة كثيرة، بل لأنها كانت تعرف خطورة الأجوبة. كانت تنظر إلى الإنسان بطريقة مختلفة، كأنها لا ترى جسده فقط،

ولا تراه مجرد كائن تحكمه الغرائز والخوف والرغبات، بل تراه لغزًا يسير على قدمين.

كانت تقول لهم: أنتم لا تعرفون حجم ما تحملون.

لكنهم كانوا يضحكون.

كيف يمكن لكائن ضعيف، مقيّد بجسد، محكوم بالزمن، أن يحمل شيئًا يتجاوز ضعفه؟ كيف يمكن لإنسان يخاف الموت، ويبحث عن الطعام، ويمهرب من الألم، أن يكون قادرًا على لمس أسرار الوجود؟

لم تكن زهرة تحاول إقناعهم بأنهم آلهة، ولم تكن تريد أن تجعلهم ينسون ضعفهم. بل كانت تريد أن تكشف لهم مفارقة أخطر: أن ضعفهم نفسه هو الباب الذي يخفي قوتهم.

كانت تأخذهم إلى البحر.

تطلب منهم أن يتخيلوا إنسانًا غارقًا في أعماقه، يحيط به السواد من كل جانب، وقد أثقل الماء جسده حتى ظن أن النهاية اقتربت. يرفع وجهه نحو السماء، يتوسل النجاة، ينتظر قوة تأتي من الخارج لتنقذه.

ثم تصمت.

وبعد لحظة تقول:

"تخلوا لو اكتشف أنه كان يحمل في داخله القدرة على المقاومة منذ البداية".

عندها يتغير المشهد.

لا يعود ذلك الإنسان مجرد ضحية غارقة في بحرقاسٍ، بل يصبح بطلاً في لحظة اكتشاف. لا لأنه هزم البحر، بل لأنه هزم الوهم الذي جعله يعتقد أنه عاجز تماماً.

كانت زهرة ترى أن الإنسان يعيش مأساة فريدة؛ فهو الكائن الوحيد الذي يعرف ضعفه، لكنه في الوقت نفسه قادر على بناء قوة من هذا الوعي. الحيوان يعيش داخل جسده دون أن يحاكم وجوده، أما الإنسان فيسأل عن نفسه، وعن جسده، وعن العالم الذي وُضع فيه.

إنه الكائن الذي لا يكتفي بأن يعيش، بل يريد أن يفهم لماذا يعيش.

ولهذا كان العقل عند زهرة أكثر الألغاز غموضًا. لم تكن تراه مجرد أداة صنعها الإنسان، بل شيئًا يكشف عن نفسه من خلال الإنسان. فالعقل لا يظهر خارج الجسد، ولا يعمل بعيدًا عن الغرائز والعواطف والتجارب، لكنه رغم ذلك يستطيع أن يتجاوز حدود هذه الأشياء كلها.

ذلك الكائن المحدود استطاع أن ينظر إلى ما لا تراه عيناه، وأن يكتشف الذرات التي لم يلمسها، وأن يفهم قوانين تسير بها نجوم بعيدة عنه. لكنه بقي عاجزًا أمام أسئلة أخرى، أسئلة يشعر أنها أكبر من أدواته.

وهنا كانت زهرة تبتسم.

لأنها لم تر في هذا العجز هزيمة.

كانت ترى فيه أعظم تناقض صنع الإنسان: عقل يبحث عن المطلق وهو يعمل داخل النسبي. عقل يريد أن يفهم الوجود كله، لكنه موجود داخل كائن محدود بالزمان والمكان والجسد.

وكان سؤالها الدائم:

هل هذا نقص في الإنسان؟

أم أن هذا هو السبب الذي جعله إنساناً؟

لم تكن زهرة تبحث عن إجابة نهائية. ربما كانت تعرف أن بعض الإجابات عندما تأتي تُغلق الأبواب التي صنعتها الأسئلة. كانت تريد فقط أن توقظ شيئاً نائماً داخل البشر: ذلك الشعور بأن الإنسان ليس مجرد كائن ينتظر مصيره، بل كائن يشارك في تشكيله.

كانت تؤمن أن الإنسان لم يُخلق كاملاً، لأن الكمال النهائي قد يقتل الرحلة. فالكائن الذي يعرف كل شيء لا يبحث، والذي لا يبحث لا يكتشف، والذي لا يكتشف لا يتغير.

أما الإنسان، فقد أُعطي عقلاً ناقصاً لا ليبقى ناقصاً، بل ليحمل مسؤولية الاكتمال.

لكن الغريب أن أحداً لم يعرف حقيقة زهرة.

لم يعرفوا من أين جاءت، ولا لماذا ظهرت في ذلك الزمن بالذات، ولا لماذا كانت تحاول إقناع الجميع بأنهم ليسوا عاجزين كما يظنون.

هل كانت تريد تحرير الإنسان من خوفه؟

أم كانت تحاول دفعه إلى مواجهة شيء أخطر في داخله؟

هل كانت تفكر بعقل امرأة فقط، أم أنها تجاوزت حدود الجسد الذي وُلدت فيه، وأصبحت تنظر إلى الإنسان من مكان لا يعرفه البشر؟

ظل السؤال معلقًا.

وظلت زهرة تمشي بين الناس، تحمل سرًا لا يعرف أحد إن كان خلاصًا أم بداية لشيء أكثر غموضًا.

فربما أعظم ألغاز الإنسان ليست أنه لا يعرف العالم، بل أنه ما زال لا يعرف نفسه. حاولت أن أجعل زهرة رمزًا للسؤال نفسه: ليست شخصية تعطي محاضرة، بل قوة تدخل القصة وتغير نظرة الشخصيات إلى وجودهم.



باشرت زهرة سؤالها الأول في السابعة عشرة

من عمرها.

لم يكن سؤالاً عادياً، ولم يكن وليد فضول عابر كما ظنت أمها. كان سؤالاً خرج من مكان مظلم داخلها؛ من منطقة تختلط فيها لوعة الفقد بقسوة الحقيقة. كانت هناك أسئلة لا تولد من الرغبة في المعرفة، بل من الألم الذي يعجز عن الصمت.

نظرت إلى أمها ذات مساء، وكأنها تجمع شجاعة سبعة عشر عاماً في لحظة واحدة، ثم قالت:

— أين أبي؟

لم يتغير وجه أمها. كأن السؤال لم يفاجئها، وكأنها كانت تنتظر اليوم الذي ستُفتح فيه تلك الحفرة القديمة.

قالت ببرود:

— في الجحيم.

ساد الصمت.

لكن زهرة لم تقبل الجواب.

رفعت عينيها وقالت:

— ليس في الجحيم... إنه في البحر.

ارتجف شيء ما في وجه أمها. وفي لحظة انفجار لم تفهمها زهرة، نزلت يد أمها على وجهها.

كانت الصفعة أقسى من الألم نفسه؛ لأنها لم تكن موجهة إلى سؤالها فقط، بل إلى كل شيء حاولت أن تفهمه.

قالت أمها بصوت يحمل غضبًا أقدم من تلك اللحظة:

— ماذا تريدان؟ ألم تعودتي تلك الفتاة البغيضة التي كانت تكره والدها وتمقتة؟
ألم تكوني أنت من قلت يومًا إنه تخلى عنك؟ إنه لم يأت في ذلك اليوم حين كنتِ
تنتظرينه؟

وضعت زهرة يدها على وجهها، لكنها لم تتراجع.

قالت بصوت مرتجف:

—لكن... لكن ألم يكن عليه أن ينقذ نفسه؟ كان سباحًا محترفًا. كان يعرف البحر أكثر من أي شخص. لماذا لم ينج؟ لماذا اختار الموت؟ أخبريني... لماذا؟ ولماذا تكرهيني أنا بالذات؟ لماذا بعد موته أصبح وجودي يؤلمك أكثر؟

نظرت إليها أمها طويلًا، وكأنها لا ترى ابنتها، بل ترى شخصًا آخر يطل من خلف عينيها.

ثم قالت:

—لأنك تشبهينه.

سكتت قليلًا، ثم تابعت:

—تشبهين فضوله المقزز. ذلك الرجل الذي لم يكن يعرف كيف يتوقف عن السؤال. كان يسأل عن كل شيء، ينبش الماضي، يبحث عن الأسباب، يريد أن يفهم ما لا يجب فهمه. وماذا جنى من كل ذلك؟ ماذا أعطاه السؤال عن ماضيه؟ لم يجلب له إلا الخراب.

اقتربت منها وقالت:

—لقد دمر حياتي. ترك فوق كتفي أربعة أطفال مثلكم لأحملهم وحدي. كان يستطيع أن يختار حياة أخرى، كان يستطيع أن يتركني خارج هذا الجحيم. لماذا تزوجني؟ لماذا أدخلني في هذه الدوامة؟ لماذا لم يمت وحده؟ لماذا كان عليه أن يتركني أعيش نتائج أسئلته؟

بقيت زهرة صامتة.

لأول مرة لم تسمع في كلام أمها كراهية فقط، بل سمعت شيئاً أعمق: خوفاً من السؤال نفسه.

كانت أمها لا تكره أباهما لأنه مات، بل لأنها شعرت أن فضوله أخذه منها. أما زهرة، فقد شعرت للمرة الأولى أن الموت لم يكن نهاية القصة، بل بداية سؤال أكبر.

إذا كان السؤال قادراً على تدمير حياة إنسان، فهل المشكلة في السؤال؟

أم في الإنسان الذي لا يحتمل الإجابة؟

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد زهرة تبحث عن أبيها فقط.

بدأت تبحث عن السبب الذي يجعل الإنسان، رغم كل ما يخسره، يصر على أن يعرف.

مدّت الأم يدها المرتجفة نحو البندقية المعلقة على الجدار.

لم تكن يد امرأة غاضبة، بل يد إنسانة أنهكها حمل الماضي حتى أصبح أثقل من قدرتها على الاحتمال. أمسكت بها، ووجهتها نحو رأسها، بينما كان الصمت في الغرفة أشد قسوة من أي صراخ.

نظرت إلى زهرة.

— أنتِ ابنتي... مهما حدث ستبقين ابنتي. لكن هذا الأمر لم يعد يحتمل.

ارتجف صوتها.

— لم تعرفي أباك كما عرفتته أنا. لم تعرفي ذلك الرجل الذي كان يعيش وكأنه يعاقب نفسه كل يوم. كان يكره نفسه بطريقة لا يستطيع أحد فهمها... حتى عندما كنت أنام بجانبه، كنت أشعروكأن شيئاً في داخله يرفض الحياة. كأن الأرض نفسها ستبتلعني من شدة ذلك الخراب الذي كان يحمله.

خفضت البندقية قليلاً، ثم تابعت:

— كان يحمل ذنبًا أكبر منه. ذنبًا لم يصنعه وحده، لكنه جعله سجنه الخاص.

ساد الصمت.

ثم قالت:

— قتل عمك جدك... وألقاه في البحر. ولم نعرف الحقيقة إلا بعد شهر كامل.
وعندما اكتشف أبوك الأمر، أراد أن يبحث عنه في البحر، كأنه كان يظن أن الماء
سيعيد إليه شيئًا فقده.

نظرت نحو النافذة، نحو ذلك البحر الذي أخذ الكثير من حياتهم.

— لكنه لم يجده.

ابتسمت ابتسامة حزينة.

— هل تعرفين لماذا كان يلوم نفسه؟ لأنه لم يتحدث مع أبيه منذ سبع سنوات.
منذ أن كنتِ في العاشرة. سبع سنوات كاملة كان يظن فيها أن الصمت يمكن أن
يُصلح الأشياء، حتى اكتشف أن بعض الصمت يتحول إلى قبر.

ثم أضافت:

— أما عمك... فلم يكتفِ بما فعله. أراد أن يجعل الجريمة تبدو كأنها خرجت منا نحن. ألقى الجسد هنا، وأراد أن يترك معنا التهمة والعار.

بقيت زهرة تنظر إليها، عاجزة عن معرفة أين تنتهي الحقيقة وأين يبدأ الألم.

قال الأخ:

— في ذلك اليوم دخل عمي ومعه شرطيان... لم أنسَ ذلك اليوم أبدًا، كأنه محفور في رأسي. دخلوا البيت وكأنهم دخلوا إلى مكان للجريمة، لا إلى بيت عائلة. ألقوا القبض على أمي مباشرة، ثم على أبي، وجروهما إلى المخفر أمام أعيننا.

لكن عمي لم يكتفِ بذلك...

ظل يضربني، يضربني وكأنه لا يرى أمامه طفلًا، وكأنه كان يريد أن ينتقم من شيء لا علاقة لي به. لم أفهم حينها لماذا كان يكرهني، لماذا كان يحمل كل ذلك الغضب

نحوي. كنت أصرخ، وأبكي، وأحاول أن أهرب، لكنه لم يتوقف حتى تمزقت أحشائي من الألم.

كنت صغيرًا جدًا، لكنني شعرت في ذلك اليوم أنني فقدت شيئًا لن يعود أبدًا.

وعندما أُفرج عن أبي، عاد إلى البيت ووجدني في حال يرثى لها. لم يكن يعرف ماذا يفعل، كان ينظر إليّ وكأنه يرى أمامه نتيجة شيء لم يستطع منعه.

لكن أمي... لم تعد.

لم تعد بعد خروجها.

كانت حاملاً بإخوتي التوأم، وذهبت إلى عائلتها. أما أنا فبقيت وحدي في ذلك البيت، البيت الذي لم يعد بيتًا بعد ذلك اليوم.

بقيت فيه وكأنني أعيش مع أشباح لا تُرى. كل زاوية كانت تحمل شيئًا من الماضي، كل جدار كان يذكرني بما حدث، وكل ليلة كنت أنتظر أن يعود أحد لينقذني.

لكن لم يأت أحد.

تركت هناك... مشوهًا، لا في جسدي فقط، بل في شيء أعمق لم أستطع تسميته.

دوى صوت إطلاق النار في أرجاء البيت المطل على البحر، فاهتزت النوافذ وارتجفت الجدران العتيقة كأنها شهدت أخيراً اللحظة التي كانت تخشاها منذ سنوات. لم تستوعب زهرة ما حدث في البداية، فقد رأت فقط جسد أمها يتراجع إلى الخلف قبل أن يسقط بعنف فوق الأرض، بينما تناثر الدم فوق الأثاث والجدران ووجوه أبنائها. بقيت للحظات تحديق في المشهد دون أن تتحرك، كأن الزمن توقف فجأة، وكأن عقلها قرر أن يؤجل الفهم إلى وقت آخر.

أما أمها، فقد انتهت أخيراً من معركتها الطويلة مع الحياة. انتهت من لومها للعالم، ومن كراهيتها للبحر، ومن حربها مع الذكريات التي ظلت تطاردها سنوات طويلة. ماتت كما عاشت في السنوات الأخيرة؛ مثقلة بالخسارات والضغائن والكوابيس التي لم تستطع الهروب منها مهما حاولت.

في تلك اللحظة أطلق الأخ الأكبر صرخة هائلة مزقت الصمت، ثم تحول صراخه تدريجياً إلى ضحك غريب أربك زهرة أكثر من صوت الرصاصة نفسها. نظرت إليه غير مصدقة، فرأت في عينيه بريقاً لم تره من قبل. لم يكن بريق الحزن ولا بريق الجنون وحده، بل شيئاً يشبه الراحة الممزوجة بالانهيار.

حاولت أن تنطق، أن تسأله عما يحدث، لكن الكلمات خرجت ضعيفة ومشوشة.

— ماذا حدث؟

غير أن أخاها لم يكن يسمعها أصلاً. كان غارقاً داخل عالم آخر، عالم بدأ يتشكل في داخله منذ سنوات طويلة. فالحقيقة أن ما جرى لم يكن مفاجئاً بالنسبة إليه، بل كان ينتظر حدوثه على أحر من الجمر. لقد عاش عمره كله داخل بيت تتغذى جدرانها على الألم، ورأى أمه تنهار ببطء عاماً بعد عام، ورأى أباه يغرق في ذنوبه القديمة، ورأى نفسه يتحول إلى شبح يتجول بين الغرف دون أن يلتفت إليه أحد.

ولهذا لم يدخل الغرفة ذلك المساء دون استعداد.

كان قد خبأ العقرب الأسود داخل المزهريّة قبل ساعات، وربما قبل أيام، حتى هو لم يعد يتذكر متى اتخذ قراره. كل ما كان يعرفه أنه تعب من الانتظار. تعب من الاستيقاظ كل صباح ليجد نفسه في البيت ذاته، محاطاً بالذكريات ذاتها، والكوابيس ذاتها، والأسئلة ذاتها التي لا تجد جواباً.

عندما رفعت أمه البندقيّة إلى رأسها، لم يشعر بالخوف كما شعرت زهرة، بل شعر أن شيئاً ثقيلاً كان جائئاً فوق صدره بدأ ينزاح أخيراً. ولذلك اتسعت عيناه فجأة، ثم انفجر ضاحكاً ضحكة هستيرية طويلة. كانت ضحكة شخص رأى النهاية التي انتظرها طويلاً، وضحكة شخص لم يعد يملك شيئاً يخسره.

واستمر في الضحك حتى بعد سقوط أمه.

واستمر في الضحك حتى عندما احتضن المزهريه بين ذراعيه كما لو كان يحتضن
طفلاً ضائعاً أو حلمًا قديمًا.

ثم رفعها فوق رأسه وأسقطها بكل قوته على جمجمته.

انفجرت المزهريه وتناثرت شظاياها في كل اتجاه، وتشقق جلده تحت قوة
الارتطام، وبدأ الدم يسيل فوق وجهه وعنقه، لكن الضحك لم يتوقف.

وعندما خرج العقرب الأسود من بين قطع الفخار المكسور وغرس سمه في جسده،
لم يتوقف الضحك أيضًا.

ظل يضحك.

وظل يضحك.

إلى أن أصبح الضحك أنفاسًا متقطعة.

ثم تحول إلى شهقات ضعيفة.

ثم اختفى تمامًا.

وسقط إلى جوار أمه.

وكأن الموت كان ينتظره منذ البداية في المكان نفسه.

أما زهرة فلم تعد قادرة على احتمال ما تراه. شعرت أن الغرفة تدور حولها، وأن الجدران تنكمش من كل الجهات، وأن الهواء أصبح أثقل من أن تتنفسه. حاولت أن تتقدم خطوة لكنها تعثرت، ثم أمسكت بالبندقية التي سقطت من يد أمها، وانهارت فوق الأرض فاقدة الوعي.

وحين استعادت وعيها لاحقًا لم تعرف كم من الوقت مر عليها. كان البيت غارقًا في صمت ثقيل، ولم يعد هناك سوى رائحة الدم والموت. فتحت عينيها ببطء ونظرت حولها، فرأت الجثتين ممددتين على الأرض كأنهما جزء من كابوس لم ينته بعد.

وقفت بصعوبة.

لم تبك.

ولم تصرخ.

فبعض المآسي تكون أضخم من الدموع.

خرجت من البيت دون أن تلتفت خلفها، وسارت نحو الشاطئ بخطوات متثاقلة،
بينما كانت الرمال الصفراء تستقبل قدميها كما استقبلتهما منذ طفولتها. وعندما
وصلت إلى البحر وقفت أمامه طويلاً. كانت الأمواج تتحرك بهدوء، والنسيم
يداعب سطح الماء، حتى بدا المشهد ساخرًا في جماله.

كيف يستطيع البحر أن يبدو هادئًا إلى هذا الحد بعد كل ما أخذه منها؟

حدقت في الأفق البعيد، وشعرت للحظة أن البحر هو عدوها الحقيقي. فهو الذي
ابتلع أباه، وهو الذي ظل حاضراً في كل حكايات العائلة، وهو الذي تحول إلى
شاهد أبدي على انهيارهم جميعاً.

لكنها سرعان ما أدركت أن البحر لم يقتل أحداً.

لقد كان الجميع يحملون بحارهم الخاصة داخلهم.

كان أبوها يغرق في ذنبه.

وكانت أمها تغرق في كراهيتها.

وكان أخوها يغرق في وحدته.

أما هي فكانت تغرق في الأسئلة.

وهنا فقط شعرت بالرعب الحقيقي.

لم يكن الموت هو أكثر ما أخافها.

بل فكرة أن يتحول الموت إلى وسيلة للهروب من الحقيقة.

فقد ماتت أمها هرباً من ذكرياتها، ومات أخوها هرباً من وحدته، وربما مات أبوها هرباً من عجزه عن مسامحة نفسه.

أما هي فلم تكن تعرف إن كانت تملك القوة الكافية لتعيش مع الحقيقة بدل الهرب منها.

رفعت عينها نحو البحر مرة أخرى، ثم تذكرت التوأم.

التوأم اللذين لم تعرفهما يوماً معرفة حقيقية، لأن أمها أبعدتهما منذ الصغر إلى بيت الجدين بعيداً عن هذا الخراب كله.

ولأول مرة منذ موت أمها وأخيها شعرت بالخوف من المستقبل أكثر من خوفها من الماضي.

فإذا عاد التوأم يوماً إلى هذا البيت...

فهل سيعيشون المصير نفسه؟

أم أن أحداً منهم سينجح أخيراً في كسر السلسلة التي ألهمت هذه العائلة جيلاً بعد جيل؟

لم تجرؤ زهرة على العودة إلى البيت مرة أخرى، فكلما حاولت أن تتخيل نفسها وهي تعبر عتبه عادت إليها صورة أمها الملقاة فوق الأرض وصورة أخيها الغارق في دمه، فتشعر بأن قدميها فقدتا القدرة على الحركة. لم تستطع حتى أن تفكر في دفنهما، إذ بدا لها أن مجرد الاقتراب من الجثتين سيجعلها تنهار هي الأخرى، ولذلك تركتهما هناك داخل ذلك المنزل المطل على البحر وتركت معهما سنوات كاملة من الذكريات والألم والخوف. وبعد أن غادرت المكان أخذت تمشي على طول الشاطئ بلا هدف واضح، وكانت الرمال تنزلق تحت قدميها بينما ظل عقلها عالقاً داخل تلك الغرفة التي شهدت انهيار عائلتها. ومع كل خطوة كانت الأسئلة تتكاثر في رأسها حتى تحولت إلى ضجيج لا يهدأ، وكان سؤال واحد يطغى على كل شيء: لماذا؟ لماذا انتهت حياتهم بهذه الطريقة؟ ولماذا كان عمها حاضراً في كل مأساة أصابت العائلة؟ وكلما حاولت الهروب من هذه الأسئلة عادت إليها بقوة أكبر حتى وجدت نفسها واقفة أمام منزل عمها دون أن تدرك كيف وصلت إليه. كان المنزل فخماً على نحو يثير الغضب، فقد كانت حديقته مرتبة بعناية ونوافذه الواسعة تعكس ضوء الشمس، بينما بدا كل شيء فيه هادئاً ومستقراً وكأنه لم يكن جزءاً من الكارثة التي التهمت حياتها.

دفعت الباب ودخلت بخطوات متثاقلة، وعندما وقع بصر عمها عليها تجمد في مكانه، إذ لم يكن يتوقع أن يرى أمامه فتاة بثياب ملطخة بالدماء وشعر مبعثر وعينين فارغتين من كل شيء إلا الحزن. نهض ببطء وهو يحاول استيعاب المشهد، لكن زهرة لم تمنحه فرصة للكلام، بل تقدمت نحوه مباشرة وقالت بصوت خافت لكنه كان أثقل من الصراخ:

— لماذا؟

ظل ينظر إليها دون جواب، فأعادت السؤال وهي تقترب منه أكثر:

— لماذا؟

ثم شعرت فجأة بأن كل ما اختزنه داخلها طوال السنوات الماضية بدأ يندفع خارجها دفعة واحدة، فقالت وهي ترتجف من شدة الانفعال:

— لماذا أنت وحش؟ لماذا فتكت بنا جميعاً؟ لماذا دمرت حياتنا؟ ولماذا لم تمت أنت بدل أبي؟ أليس أنت من سفك دم أبيك؟ أليس أنت من جر هذه العائلة كلها إلى الهاوية؟

ثم أشارت إلى ثيابها الملطخة بالدماء وأكملت:

— انظر إليّ... هذه دماء عائلتي. دماء أمي ودماء أخي. أتعرف ماذا حدث اليوم؟ لقد ماتا. ماتا وتركنا كل شيء خلفهما بينما ما زلت أنت تعيش هنا في هذا البيت الهادئ وكأن شيئاً لم يحدث. لماذا تبدو سعيداً؟ هل أنعشت روحك رائحة الدماء؟ هل أصبحت شيئاً آخر غير الإنسان؟ أخبرني... ماذا بقي منك بعد كل هذا؟

ظل الرجل صامتًا، وكان الصمت يزيد من غضبها أكثر مما لو أجابها، غير أن زوجته خرجت في تلك اللحظة من إحدى الغرف بعد أن سمعت الأصوات المرتفعة. وما إن رأت زهرة حتى عقدت حاجبها واقتربت منها بسرعة وصفعتها بقوة وهي تقول:

— كيف تجرئين على اقتحام منزلنا والتحدث إلى زوجي بهذه الطريقة؟ ومن أنت أصلاً؟

استدارت زهرة نحوها ببطء، ولم يظهر على وجهها أي أثر للغضب أو الرغبة في الرد، بل بدا وكأنها استنفدت كل ما تملك من مشاعر. حدقت فيها للحظات ثم قالت بصوت مبحوح:

— من أنا؟

وسكتت قليلاً قبل أن تكمل:

— أنا ابنة أبي... وأنا ابنة أمي... وأنا ابنة ابن أبيه. نحن عائلة. نحن لسنا غرباء. نحن أشخاص تجمعهم الذكريات نفسها والقبور نفسها وقطرات الدم نفسها.

ثم التفتت نحو عمها مرة أخرى وكأن وجود زوجته لم يعد يعني لها شيئاً، وقالت:

— لطالما قيل لنا إن الدم يوحد الناس، لكنني لم أرفي حياتي سوى الدم وهو يمزقهم. لقد مات أبي، وماتت أمي، ومات أخي، وكل واحد منهم حمل جرحه معه إلى القبر. أما أنا فقد بقيت هنا أحمل ما تبقى من هذا الخراب، ولذلك أريد جوابًا واحدًا فقط.

وتقدمت خطوة أخرى حتى أصبحت على بعد أمتار قليلة منه ثم قالت:

— متى بدأنا نقتل بعضنا ونحن نسمي أنفسنا عائلة؟

عندها فقط ارتعشت ملامح الرجل للمرة الأولى. لم يكن الخوف هو ما ظهر على وجهه، بل شيء أقرب إلى الإرهاق، كأن السؤال أعاده إلى سنوات طويلة حاول دفنها في أعماق ذاكرته. أما زهرة فكانت تنظر إليه بعناد غريب، إذ لم تعد تبحث عن الانتقام، ولم تعد حتى تبحث عن العدالة، بل كانت تبحث عن المعنى. كانت تريد أن تعرف كيف يمكن لعائلة كاملة أن تتحول إلى هذا الركام من الموت والكراهية. كانت تريد أن تعرف في أي لحظة تحديدًا بدأ كل شيء ينهار، وفي أي لحظة تحولت روابط الدم إلى سلاسل تخنق أصحابها بدل أن تحميهم. ولأول مرة منذ وفاة أمها وأخيمها شعرت أن الجواب الذي تنتظره قد لا يكون مخفيًا في البحر الذي ابتلع أباهما، ولا في البيت الذي ماتت فيه أمها، بل في الرجل الواقف أمامها، الرجل الذي ظل حاضرًا في كل قصة حزينة سمعتها منذ طفولتها، والرجل الذي ربما كان يحمل في صدره سر الخراب الذي التهم العائلة جيلًا بعد جيل.

خرجت زهرة من منزل عمها وقد استنزفتها الأسئلة أكثر مما استنزفتها المأساة نفسها. كانت تشعر وكأنها قضت ساعات تخاطب جداراً أصم لا يسمع ولا يجيب، ومع ذلك لم تستطع التخلص من إحساس غريب ظل يلاحقها وهي تبتعد عن المنزل. لم يكن عمها الرجل الهادئ الذي بدا أمامها، ولم يكن ذلك الوحش البسيط الذي رسمته في خيالها طوال سنوات. كان شيئاً أكثر تعقيداً من ذلك بكثير، شيئاً لا تستطيع أن تمنحه اسماً واضحاً. فقد رأت في عينيه اضطراباً لم تستطع تجاهله، ورأت خلف صمته ناراً قديمة ما تزال مشتعلة رغم مرور السنين. أما هو فبقي واقفاً في مكانه بعد رحيلها، كأن كلماتها أيقظت أشباحاً دفنها منذ زمن بعيد. نظر إلى صورته المنعكسة على زجاج النافذة، ثم رفع يده وصفع نفسه بقوة. كانت الصفعة الأولى عقاباً على أخيه، على ذلك اليوم الذي اختار فيه أن يحمي سمعته ويترك أخاه يسقط وحده في الهاوية. ثم جاءت الصفعة الثانية لأنه أفرغ أمراضه النفسية كلها في تلك العائلة قبل أن يتعلم كيف يواجهها داخل نفسه. أما الثالثة فكانت الأقسى، لأنها أعادته إلى طفلة صغيرة حملت اسم زهرة، ابنته التي ماتت بين يديه في ليلة عاصفة، وظل منذ ذلك اليوم يحمل شعوراً خفياً بأنه فشل في إنقاذها. ثم جاءت الصفعة الأخيرة، الصفعة التي لم تكن موجهة إلى وجهه بقدر ما كانت موجهة إلى ماضيه كله، لأنه انتقم من أبيه يوماً معتقداً أن الانتقام سيحرره من سنوات التعذيب التي عاشها تحت سلطته، لكنه اكتشف متأخراً أن الكراهية لا تحرر أحداً، بل تورث نفسها من جيل إلى جيل.

وفي تلك الأثناء كانت زهرة تسير بمحاذاة الشاطئ، بينما كانت الرياح تعبث بشعرها المنكوش وتحجب الرؤية عن عينيها بين الحين والآخر. لم تعد تفكر في عمها وحده، بل في الجميع. في أبيها، وأمها، وأخيها، وعمها، وحتى جدها الذي لم

تعرفه إلا من الحكايات. وكلما استعرضت وجوههم داخل ذاكرتها شعرت أن شيئاً واحداً كان يجمعهم جميعاً رغم اختلافهم. لم يكن الشر، ولم يكن الضعف، ولم يكن الجنون. كان سوء الفهم. لقد بدا لها فجأة أن كل واحد منهم عاش أسير صورة ناقصة عن الآخر، وأن كل واحد منهم كان يقاتل شبحاً صنعه بنفسه ثم يظنه حقيقة. أبوها ظن أنه قادر على النجاة وحده فغرق في ذنبه، وأمها ظنت أن غضبها سيحميها فتحول إلى سجن، وأخوها ظن أن الموت سيمنحه السلام، أما عمها فظن أن الانتقام سيمنحه الحرية، ولم يدرك أحد منهم أن الجرح الذي يرفض الإنسان النظر إليه يعود دائماً في صورة أخرى.

رفعت زهرة رأسها نحو الأفق البعيد وسألت نفسها سؤالاً لم تعرف له جواباً: الإنسان يدفع دائماً ضريبة ولائه لذاته، لكن لماذا كان الجميع منشغلين بالنظر إلى الآخر؟ لماذا أمضوا حياتهم يحاكمون بعضهم بعضاً بينما كانوا يعجزون عن فهم أنفسهم؟ هل الإنسان غبي بطبعه؟ أم أن وعيه المحدود يجعله يرى العالم من خلال أمله فقط؟ لم تجد جواباً، لكن السؤال ظل ير افقها وهي تمشي، كأن البحر نفسه كان يردده معها في صمت.

بعد ثماني سنوات من تلك الحادثة، كانت زهرة تجلس في إحدى قاعات معرض للفنون البصرية وقد التف حولها الصحفيون والزوار والمهتمون بأعمالها. كانت القاعة مضاءة بألوان هادئة، بينما احتلت صورة ضخمة للبحر الجدار الرئيسي خلفها. لم يكن بحرًا استثنائيًا في ظاهره، مجرد أفق أزرق يمتد إلى ما لا نهاية، لكن كل من عرف قصتها كان يدرك أن تلك الصورة تحمل من المعاني أكثر مما تحمله الألوان.

جلست زهرة على كرسي منحني القامة، وقد بدت أكثر هدوءًا مما توقع الحاضرون. كانت تتحدث بصوت لين وواثق، تسرد تفاصيل حياتها كما لو كانت تروي سيرة شخص آخر. ومع كل حادثة تذكرها كانت علامات الذهول ترتسم على وجوه الصحفيين. فقد بدت قصتها أشبه بسلسلة طويلة من الصدمات المتلاحقة، حتى إن بعض الحاضرين أخذوا يحدقون فيها وكأنهم لا يصدقون أن امرأة واحدة استطاعت النجاة من كل ذلك.

ومع ذلك، وبين سيل الأسئلة الثقيلة، جاء سؤال عابر من أحد الصحفيين الجالسين في الصفوف الخلفية. لم يكن السؤال الأكثر عمقًا، ولا الأكثر جرأة، لكنه أصاب مكانًا مختلفًا داخلها.

قال الصحفي:

— كيف تجاوزت كل ذلك؟ ومن الذي دفن أمك وأخاك؟

ولسبب لم تفهمه زهرة تمامًا، شعرت بدفء غريب يجتاح قلبها. ربما لأن السؤال لم يكن يبحث عن الجريمة ولا عن الدماء ولا عن الفضائح القديمة، بل عن ما حدث بعدها. عن الحياة التي استمرت رغم كل شيء.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم سكنت لحظات كأنها عادت بذاكرتها إلى زمن بعيد.

وحين بدأت تتحدث، تغيرت نبرة صوتها.

أصبحت أكثر هدوءًا.

وأكثر براءة.

وكان السنوات الثماني اختفت فجأة.

وقالت:

— بعد يوم واحد فقط وجد أحد المارة الباب مفتوحًا. كان يسير بمحاذاة الشاطئ، ولاحظ أن المنزل يبدو مهجورًا على نحو مريب، فاقترب منه ودخل. وهناك وجد الجثتين و أبلغ الشرطة.

ثم خفضت عينها نحو الأرض للحظات قبل أن تتابع:

— بعد ذلك بدأت الشرطة تبحث عني. لقد ظنوا أنني ربما تعرضت للأذى أو أنني اختفيت لسبب ما. لكن الحقيقة أنني كنت غارقة في سبات مأساوي، سبات لا أعرف كيف أصفه حتى اليوم. كنت أتنفس وأتحرك وأعيش، لكنني لم أكن موجودة بالكامل.

ساد الصمت في القاعة.

أما زهرة فواصلت حديثها بهدوء:

— لن أقول إن المرحلة التي تلت ذلك كانت سهلة، لأن ذلك سيكون كذبًا. لكنني أعتقد أن الليلة نفسها كانت أكثر شراسة من كل ما جاء بعدها. ففي تلك الليلة تحطم شيء أساسي في داخلي، شيء لم أستطع إصلاحه إلا بعد سنوات طويلة.

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى صورة البحر المعلقة خلفها.

— دفنوا أخي وأمي بجانب أبي. أذكر أنني وقفت أمام القبور يومها وأنا أشعر أن عائلتي كلها أصبحت تحت التراب دفعة واحدة.

تنهدت بخفة.

— أما أنا فقد ذهبت إلى بيت جدتي، أم أبي. هي التي آوتني عندما لم يكن لدي مكان أذهب إليه. لم تسألني كثيرًا، ولم تحاول أن تنتزع مني الكلام بالقوة. كانت تكتفي بوجودها إلى جانبي، وأعتقد اليوم أن ذلك كان أعظم ما احتجته في ذلك الوقت.

ثم ابتسمت ابتسامة امتنان حقيقية.

— بقيت معها سنوات طويلة. وهناك تعلمت أن الحياة لا تعيد إلينا ما فقدناه، لكنها تمنحنا أحيانًا القدرة على حمله دون أن نسقط. وربما لولاها لما كنت أجلس أمامكم الآن.

وعندما انتهت من كلامها خيم صمت قصير على القاعة. لم يكن صمت الشفقة، بل صمت أشخاص أدركوا فجأة أن النجاة ليست حدثًا يقع في لحظة واحدة، بل رحلة طويلة يبدأها الإنسان بعد أن يظن أن كل شيء انتهى.